أسباب النصر والهزيمة
في ضوء القرآن الكريم

عبد اللّه إبراهيم المغلاج



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على الرسول القائد سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإن الناظر في حال المسلمين اليوم يصاب بالإحباط لما يرى من تداعي الأمم على هذه الأمة المستضعفة المشتتة النائمة، وإن صحَت فهي حائرة لا تدري أين تتوجه، ولا كيف تتخلص مما هي فيه، وكتاب ربها يناديها: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ [التكوير: ٢٦].

إنها الفتنة التي تدع الحليم حيران، لكن المؤمنين الصادقين ينظرون من وراء أسجاف هذه الفتن، يستشفّون المستقبل بنظرة تفاؤلية، ينتظرون بزوغ الفجر بعد هذا الليل الثقيل، فهذا الحال وإن طال لكنه لا يدوم، وكلما اشتدت الأزمات آذنت بقرب الفرَج، و: ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ [الشرح : ٦]. و: "**لن يغلب عسر يسرين**"[١]، وإن المنح بعد المحن؛ لأن المستقبل لهذا الدين، بعز عزيز أو بذلّ ذليل، كما أخبرنا النبي ﷺ بذلك: " **ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدَر ولا وبَر إلا أدخله الله هذا الدين، بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل، عزّاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذلّ الله به الكفر**"[٢].﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الصف: ٨].

وإن هذا الفجر الذي طال انتظاره قريب إن شاء الله تعالى، ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الروم : ٤-٥]. لكنه يحتاج إلى التضحية، أن نضحي بأهوائنا وشهواتنا، وأن نعود إلى ديننا فننصر ربنا بالتزامنا بهذا الدين والمحافظة على حدوده؛ لينصرنا ربنا تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

إنها سنّة من سنن الله تعالى في التمحيص والابتلاء، ودرس من دروس التربية القرآنية، لتتقبل النفس الحق وتدافع عنه وتسترخص في إقامته كل غال ونفيس.

لقد ربّى النبي ﷺ أصحابه على تقبّل هذه السنن ودربهم عليها؛ فقد جاء خباب بن الأرت رضي الله عنه يسأل النبي ﷺ أن يطلب لهم النصر من الله تعالى؛ لأنهم لم يطيقوا ما يلقونه من قريش، قال خبّاب : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له : ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا ؟ قال: "**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه! ويمشط بأمشاط الحديد**

---

(١) صحت الرواية عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب : لن يغلب عسر يسرين . المستدرك للحاكم ٥٧٥/٢. وانظر: الموطأ (٩٦١) ٤٤٦/٢. ومصنف ابن أبي شيبة (١٩٤٨٦) ٢٢٢/٤.

وقد روي بإسناد مرسل عن النبي ﷺ . المستدرك للحاكم ٥٧٥/٢. وانظر: صحيح البخاري ١٨٩٢/٤. وشعب الإيمان للبيهقي (١٠٠١٣) ٢٠٦/٧.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٦٩٩٨) ١٠٣/٤. وإسناده صحيح على شرط مسلم.



ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه! والله ليتمَّن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون" (١) إنه استعجال النتائج والثمرات قبل الأوان.

ولما نزلت بمكة: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥]، قال عمر ﷺ: أي جمع هذا ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ وبيده السيف مصلتاً وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (٢). لقد جاء تأويلها بعد قرابة اثني عشر عاماً من نزولها.

وهل أمِنوا بعد أن فارقوا مكة وهاجروا إلى المدينة؟ لقد رمتهم العرب عن قوس واحدة، فزاد خوفهم، فعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال : لما قدم رسول ﷺ الله وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: أتُرون أنّا نعيش حيث نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله!! فنزلت: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥](٣). في هذه الظروف جاءت الآيات تعِدُهم بالاستخلاف في الأرض والتمكين لدينهم الذي ارتضاه الله لهم.

إن الابتلاء سنة من سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول، على اختلاف الزمان والمكان، كما أن الابتلاء قد يكون عقوبة على التقصير والإهمال والتفريط، والشواهد لهذا كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ... ﴾ [النساء: ٦٢]، وقوله: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ ... ﴾ [آل عمران: ١٦٥] أي: بما عصيتم(٤).

وقد يكون الابتلاء للتمحيص والطهارة والتنقية والترقية، كما جرت هذه السنة على من سبقنا من أمم الأرض، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤]. أي: أم حسبتم أنكم – أيها المؤمنون بالله ورسله – تدخلون الجنة، ولم يصبكم مثل ما أصاب من قبلكم من أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والاختبار، فتُبتلوا بما ابتلوا واختُبروا به من البأساء وهو: شدة الحاجة والفاقة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٦) ١٣٢٢/٣.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٣٨٢٩) ١٤٥/٤. وانظر أيضاً منه: (٩١٢١) ٥٨/٩.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٥١٢) ٤٣٤/٢ وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

(٤) تفسير الطبري ٥٠٦/٣.



والضراء، وهي: العلل والأوصاب. ولم تزلزلوا زلزالهم، يعني: ولم يصبهم من أعدائهم من الخوف والرعب شدة وجهد حتى يستبطئ القوم نصر الله إياهم، فيقولون: متى الله ناصرنا؟

ثم أخبرهم الله أن نصره منهم قريب، وأنه معليهم على عدوهم، ومظهرهم عليه، فنجز لهم ما وعدهم، وأعلى كلمتهم، وأطفأ نار حرب الذين كفروا. وهذه الآية – فيما يزعم أهل التأويل – نزلت يوم الخندق حين لقي المؤمنون ما لقوا من شدة الجهد من خوف الأحزاب، وشدة أذى البرد، وضيق العيش الذي كانوا فيه يومئذ (١).

فالابتلاء قد يكون بالحرب وقد يكون بنقص الأموال والأنفس والثمرات: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥]. وهذه الابتلاءات كلها تعود بالخير العظيم على المؤمن.

« ففي هذا الابتلاء يستجيش في نفوس المؤمنين أكرم ما في النفس البشرية من طاقات واتجاهات، فليس أكرم في النفس من أن يعزّ عليها الحق الذي تؤمن به، حتى تجاهد في سبيله، فتَقتُل وتُقتَل، ولا تسلم في هذا الحق الذي تعيش له وبه، ولا تستطيع الحياة بدونه، ولا تحب هذه الحياة في غير ظله.

ويريد ليربيهم، فيظل يخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة في أعراض هذه الأرض الفانية، مما يعز عليهم أن يتخلوا عنه، ويظل يقوي في نفوسهم كل ضعف، ويكمل كل نقص، وينفي كل زغَل ودخَل، حتى تصبح رغائبهم كلها في كفة، وفي الكفة الأخرى تلبية دعوة الله للجهاد، والتطلع إلى وجه الله ورضاه، فترجح هذه وتشيل تلك، ويعلم الله من هذه النفوس أنها خُيِّرت فاختارت، وأنها تربت فعرفت، وأنها لا تندفع بلا وعي، ولكنها تقدر وتختار.

ويريد ليصلحهم، ففي معاناة الجهاد في سبيل الله، والتعرض للموت في كل جولة، ما يعوِّد النفس الاستهانة بهذا الخطر المخوف، الذي يكلف الناس الكثير من نفوسهم وأخلاقهم وموازينهم وقيمهم ليتقوه، وهو هيّن هيّن عند من يعتاد ملاقاته، سواء سلم منه أو لاقاه.

والتوجه به لله في كل مرة يفعل في النفس في لحظات الخطر شيئاً يقربه للتصور فعل الكهرباء بالأجسام، وكأنه صياغة جديدة للقلوب والأرواح على صفاء ونقاء وصلاح » (٢).

﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [محمد: ٤]. أي: ولو يشاء الله لانتصر من هؤلاء المشركين بعقوبة منه لهم عاجلة، وكفاكم ذلك كله، ولكنه تعالى ذكره كره الانتصار منهم، وعقوبتهم عاجلاً إلا بأيديكم أيها المؤمنون؛ ليختبركم بهم، فيعلم المجاهدين منكم

(١) تفسير الطبري ٢/٣٥٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/٣٢٨٦.



والصابرين، ويبلوهم بكم فيعاقب بأيديكم من شاء منهم، ويتعظ من شاء منهم بمن أهلك بأيديكم من شاء منهم حتى ينيب إلى الحق [١].

إن النصر له عوامله وأسبابه، إن تحققت جاء النصر من عند الله العزيز الحكيم، وإن تخلفت كانت الهزيمة، وأقرب مثال لذلك غزوة أحد، فقد كان النصر المؤزر حليف المسلمين في الصفحة الأولى من المعركة عندما توافرت أسباب النصر وعوامله، وكانت الهزيمة في الصفحة الثانية من المعركة عندما تخلفت هذه العوامل، وجاء الدرس بليغاً للأمة في أجيالها المتلاحقة، أنْ لا نصر للمقاتلين مع خرق قواعد النصر حتى وإن كان رسول الله ﷺ بين أظهرهم.

وهذه الأسباب لا تتخلف ولا تتغير في مضمونها وحقيقتها، وإن اختلفت صور بعضها حسب الأزمنة والإمكانات.

وبيان هذه الأسباب والعوامل أصبح ضرورياً، ونحن – الآن – أحوج ما نكون إلى تجليتها، والالتزام بها، حتى يحالفنا نصر الله ، وننهض بدورنا من جديد في ريادة العالم.

وقد عملت على تجلية هذه الأسباب من خلال بحث: (أسباب النصر والهزيمة في ضوء القرآن الكريم) فجاء على مقدمة وخاتمة بينهما ثلاثة مباحث :

المقدمة : (وهي ما نحن بصدده).

المبحث الأول : معنى : الأسباب (العوامل) ، النصر ، الهزيمة .

المبحث الثاني : عوامل النصر .

المبحث الثالث : عوامل الهزيمة .

الخاتمة .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خاصاً لوجهه الكريم، وأن يوفقنا لتحقيق عوامل النصر، وأن يوحّد أمتنا تحت راية دينه، إنه خير مسؤول .

عبد الله إبراهيم المغلاج

الإمارات العربية المتحدة

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م.

(١) تفسير الطبري ٣٠٥/١١.



المبحث الأول

معنى الأسباب (العوامل)، النصر، الهزيمة.

أسباب (عوامل) النصر والهزيمة

الأسباب:

جمع سبب، والسبب : كل شيء يُتوصَّل به إلى غيره ... والأصل في استعماله : هو الحبل الذي يتوصل به إلى الماء، ثم استعير لكل ما يتوصل به إلى شيء[١].

والعوامل:

مفردها عامل ، والأساس والقواعد والأركان والدعائم والعوامل بمعنى [٢]، ولعل أصلها اللغوي مأخوذ من العوامل بمعنى الأرجل، قال الأزهري: عوامل الدابة: قوائمها، واحدتها عاملة[٣]. فكما أن الدابة لا تقوم بدون أرجل، فكذلك النصر لا يقوم بدون قواعده وأسسه ودعائمه؛ فتكون عوامل النصر أركانه التي لا يتحقق بدونها. وكذلك السبب لا يتحقق المسبَّب بدونه.

والنصر :

قال ابن فارس: النون والصاد والراء أصلٌ صحيح يدلُّ على إتيان خَيرٍ وإيتائه. ونَصَرَ اللهُ المسلمين: آتاهمُ الظّفرَ على عدوِّهم، ينصرهم نَصْراً. وانتصر: انتقم، وهو منه. وأمَّا الإتيانُ فالعرب تقول: نصرت بَلَدَ كذا، إذا أتيتَه؛ ولذلك يسمَّى المطرُ نَصْراً. ونُصِرت الأرضُ، فهي منصورة. والنَّصْر: العَطاء[٤].

والنَّصر: إعانة المظلوم، والاسم النُّصْرة، والنَّصِير: النَّاصِر، قال الله تعالى: ﴿ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الأنفال: ٤٠]، والجمع أَنْصَار، والأَنصار: أَنصار النبي ﷺ غَلبت عليهم الصِّفة فجرى مَجْرَى الأَسماء، وصار كأَنه اسم الحيّ؛ ولذلك أُضيف إليه بلفظ الجمع فقيل أَنصاري.

والنُّصْرة: حُسْن المَعُونة، قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [الحج: ١٥] المعنى: من ظن من الكفار أَن الله لا يُظْهِر محمداً ﷺ على مَنْ خالَفَه فليَخْتَنِق غَيظاً حتى يموت كَمَداً، فإِن الله عز وجل يُظهره، ولا يَنفعه غيظه وموته حَنَقاً، فالهاء في قوله: ﴿ أَن لَّن يَنصُرَهُ ﴾ للنبيّ محمد ﷺ.

---

(١) لسان العرب ٤٥٨/١-٤٥٩(سبب).

(٢) انظر: الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة، ابن مالك ١٨٢.

(٣) تاج العروس ٥٢٣/١٥. (عمل).

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤٣٥/٥.



والاسْتِنْصار اسْتِمْداد النَّصْر واسْتَنْصَره على عَدُوّه أَي سأَله أَن ينصُره عليه والتَّنَصُّرُ مُعالَجَة النَّصْر، والتَّناصُر التَّعاون على النَّصْر، وتَناصَرُوا: نَصَر بعضُهم بعضاً[1].

ونصرة الله للعبد ظاهرة، ونصرة العبد لله هو نصرته لعباده، والقيام بحفظ حدوده، ورعاية عهوده، واعتناق أحكامه، واجتناب نهيه. قال: ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد:٧] [2].

والنصر ليس محصوراً في انتصار المعارك؛ فقد يكون النصر نصر العزة والتمكين في الأرض، وقد يكون بإهلاك الكافرين والمكذبين ونجاة رسل الله وعباده المؤمنين، وقد يكون انتصار العقيدة والإيمان، وقد يكون بحماية الله عز وجل عباده المؤمنين من كيد الكافرين، وقد يكون نصر الحجة والبرهان، وكل هذه الصور داخلة في وعد الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].

والنصر الذي نريد أن نتكلم عنه هنا، هو النصر في المعارك.

الهزيمة:

قال ابن فارس: الهاء والزاء والميم أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على غَمْز وكَسْر؛ فالهَزْم: أن تَغْمِزَ الشيءَ بيدك فيَنْهَزِمَ إلى داخل، كالقَثّاءِة والبِطِّيخة. ومنه الهَزِيمة في الحَرْب. وغيثٌ هَزِيم: متبعِّق. وهَزِيم الرَّعدِ: صوتُه، كأنَّه يتكسَّر، من قولهم: تهزَّمَ السِّقاء: يَبِس فتشقَّقَ[3].

والهَزِيمةُ في القتال: الكَسْرُ والفَلُّ، هَزَمَه يَهْزِمُه هَزْماً فانْهَزَمَ، وهُزِمَ القومُ في الحرب، والاسم الهَزِيمة والهِزِّيمى، وقوله عز وجل: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ ﴾ [البقرة: ٢٥١]. معناه: كسَروهم ورَدُّوهم. وأَصل الهَزْم كَسْر الشيء وثَنْيُ بعضه على بعض[4].

والهزيمة أيضاً قد تكون هزيمة موقف أو هزيمة معركة، وحديثنا هنا عن هزيمة المعركة.

(١) لسان العرب ٢١٠/٥(نصر). وانظر: القاموس المحيط ٦٢١/١-٦٢٢(نصر). والعين للخليل ١٠٨/٧(نصر).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ٨٠٩ (نصر).

(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥١/٦.

(٤) لسان العرب ٦٠٨/١٢(هزم). وانظر: القاموس المحيط ١٥٠٩/١-١٥١٠(هزم). والعين للخليل ١٦/٤-١٧(هزم). ومفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ٨٤٢ (هزم).



المبحث الثاني

أسباب النصر وعوامله

أمر الله المؤمنين بالأخذ بالأسباب التي تحقق لهم النصر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وكذلك كان النبي ﷺ يوجّه أصحابه إلى الأخذ بأسباب النصر، وكان يعمل بالأسباب الممكنة في عصره، فحفر الخندق يوم الأحزاب، ولبس المغفر يوم الفتح، وظاهَر بين درعين يوم أُحد، وأعد القادة والجنود والأموال.

وإذا كنا مأمورين بالأخذ بالأسباب فليس معنى ذلك أن نركن إليها ونغفل عن المسبب جل وعلا، لقد كان للمسلمين في غزوة حُنين درس بليغ عندما ركنوا إلى سبب من أسباب النصر، فأعجبتهم كثرتهم، وقالوا: لن نغلب اليوم من قلة، وغفلوا عن مسبب النصر ومالكه ومنزله، فحلّت بهم الهزيمة أول المعركة، ولم يثبت إلا رسول الله ﷺ وفئة قليلة من أصحابه، وجاء البيان القرآني ليسجل هذا الموقف لتبقى العبرة إلى آخر الزمان: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ*ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

أمّا في غزوة الأحزاب (الخندق) فبعد أن أخذ النبي ﷺ وأصحابه بالأسباب الممكنة، جاء النصر من خارج هذه الأسباب، ومن حيث لم يحتسبه أحد، جاء النصر بسبب نُعيم بن مسعود الأشجعي الذي أسلم وقت الغزوة، فقام بالتخذيل والوقيعة بين صفوف الأحزاب، وكذلك بالريح القوية التي اقتلعت خيام المشركين وكفأت قدورهم فدبت الفوضى في الصفوف، فولَّوا مدبرين.

فمن يملك الجيش الكبير أو السلاح المتطور، يكون قد امتلك سبباً من أسباب النصر لكنه لم يمتلك النصر؛ لأن النصر من عند الله وحده، هو مالكه ومنزله : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. يهبه لمن يشاء، متى شاء وكيف شاء: ﴿ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٣]. وهو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكرماً وتفضلاً لعباده المؤمنين: ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]، ومن نصره الله لا تغلبه قوة: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

فنصر الله لا يملكه إلا هو، ولا يهبه إلا هو، وهو يهبه لمن يشاء متى يشاء كيف يشاء، وقد وعد أن ينصر رسله والمؤمنين ، وهو ممتد في الزمان والمكان ، فهو نصر في الدنيا والآخرة، ومن ينصره الله لا يغلبه أحد، ونصر الله قريب من الصابرين، يفرح به المؤمنون، وهو محبب إليهم ، ويأتي بعد الابتلاء والتمحيص والفتن.



وقد تولى الله بيان الأسباب والعوامل الجالبة للنصر في كتابه ومن أهمها:

١- الإيمان الصادق بالله تعالى:

وهو أهم أسباب النصر؛ فقد تكفل ربنا تعالى بنصر المؤمنين، كما تكفل بنصر المرسلين عليهم السلام: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١]. بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبي وغير ذلك من العقوبات [١]؛ وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم... وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقرّ أعينهم ممن آذاهم [٢] ، قال رسول الله ﷺ : "**إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**" [٣]؛ فالمؤمنون أتباع الرسل، ونصر المؤمنين الصادقين نصر للرسل المكرمين، بل جعل الله نصر المؤمنين حقاً واجباً عليه تكرماً منه وفضلاً : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]. وهذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه، وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد، وفيه تشريف للمؤمنين، ومزيد تكرمة لعباده الصالحين [٤].

وقد أكرم الله أهل الإيمان بتثبيت الملائكة: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢]، بل بمعيته لهم، فقال مخاطباً كفار قريش: ﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١٩]، ومن كان الله معه فمعه الفئة التي لا تُغلب.

والمؤمن يثق بربه سبحانه وتعالى، ويثق بوعده بالنصر لعباده المؤمنين .

٢- العمل الصالح:

وهو قرين الإيمان كما جاء في كثير من الآيات القرآنية، ومن هذه الأعمال الصالحةِ التي تحفظ تماسك الأمة وتستجلب النصر:

الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنهما يحفظان الأمة من الهلاك، فقد سألت السيدة زينب بنت جحش النبيَّ ﷺ؛ قالت: يا رسول الله، أنهلِك وفينا الصالحون؟ قال: "**نعم، إذا كَثُر**

(١) تفسير أبي السعود ٢٨٠/٧.

(٢) تفسير ابن كثير ١٠٦/٤.

(٣) أخرجه البخاري (٦١٣٧) ٢٣٨٤/٥. وولي الله: هو العالم بدين الله تعالى، المواظب على طاعته، المخلص في عبادته.قال تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

(٤) فتح القدير للشوكاني ٣٢٧/٤. وانظر: تفسير ابن كثير ٥٧٨/٣.



الخَبَث"[١]. والقعود عن هذا الواجب يحجب النصر، قال ﷺ: "**يا أيها الناس، إن الله عز وجل يقول: مُروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، من قبل أن تدعوني فلا أجيبكم، وتسألوني فلا أعطيكم، وتستنصروني فلا أنصركم**"[٢].

ومن الأعمال الصالحة الجهادُ في سبيل الله، وهو سبيل العزة والنصر؛ فهو يحفظ كرامة الأمة وعزتها، ويحمي طريق الدعوة لتصل كلمة الحق إلى الآفاق، ولأن عدونا لا يطيب له عيش ولا يهنأ له بال حتى يردّنا إلى الكفر والتخلي عن ديننا الذي ارتضاه ربنا لنا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وهذا بيان لاستحكام عداوتهم وإصرارهم على الفتنة في الدين حتى يردوكم عن دينكم الحق إلى دينهم الباطل[٣]. فهم لا يزالون مستمرين على قتالكم وعداوتكم حتى يردّوكم عن الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا ذلك وتهيأ لهم منكم، وهذه الغاية لما يريدونه من المقاتلة للمؤمنين[٤]. فهم لا يتركونكم وإن تركتموهم أنتم، حتى يحققوا رغبتهم فيكم إن استطاعوا وهي اتباع أهوائهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ... ﴾. [البقرة: ١٢٠]، وإن أوقفوا المواجهة المسلّحة فسيلجأون إلى مواجهة من نوع آخر؛ ثقافية، اقتصادية ...

ومن ذلك أيضاً: الإكثار من النوافل؛ فإنها طريق لولاية الله تعالى، ومن تولاه الله فهو منصور لا محالة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "**إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته**"[٥]. وولي الله: هو العالم بدين الله تعالى، المواظب على طاعته، المخلص في عبادته.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٨) ٣/١٢٢١. ومسلم (٢٨٨٠) ٤/٢٢٠٧. والخَبَث بفتح الخاء والباء فسره الجمهور بالفسوق والفجور، وقيل: المراد الزنى خاصة، وقيل: أولاد الزنى والظاهر أنه المعاصي مطلقاً . شرح النووي على صحيح مسلم ٣/١٨.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٥٢٩٤) ٦/١٥٩. وهو حسن لغيره: (إسناده ضعيف).

(٣) تفسير أبي السعود ١/٢١٧.

(٤) فتح القدير للشوكاني ١/٣٣١.

(٥) أخرجه البخاري (٦١٣٧) ٥/٢٣٨٤.



٣- الإخلاص:

وهذا مطلب عام في سائر الطاعات، لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، والجهاد في سبيل الله ينبغي ألا يكون إلا في سبيل الله، أي خالصاً لوجه الله تعالى، ولإعلاء كلمة الله، فعن أبي أمامة الباهلي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله: "**لا شيء له**". فأعادها ثلاث مرات. يقول له رسول الله: "**لا شيء له**". ثم قال: "**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً، وابتغي به وجهه**" (١).

وعن أبي موسى الأشعري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمَن في سبيل الله؟ قال: "**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**" (٢).

والمراد بكلمة الله: دعوة الله إلى الإسلام؛ فيكون أصل الباعث للقتال: طلب إعلاء كلمة الله(٣). ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ [النساء: ٧٦].

وفي قول النبي ﷺ: "**لا هِجْرة بَعْد الفَتْح ولكن جهادٌ ونِيَّة**" يقول ابن الأثير الجزري: (الجِهاد: مُحارَبة الكُفار وهو المُبالَغة واستِفْراغ ما في الوُسْع والطَّاقة من قول أو فعْل... والمراد بالنية إخْلاصُ العمَل للّه تعالى أي: إنَّه لم يَبْقَ بعد فتْح مكة هِجْرة لأنَّها قد صارَتْ دار إسْلام، وإنما هو الإخْلاص في الجهاد وقِتال الكُفَّار)(٤).

وقد تكفل الله تعالى أن ينصر جنده، الذين صحت نسبتهم إليه بإخلاصهم في جهادهم: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

والمراد بجند الله حزبه، وهم الرسل وأتباعهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١]. وهذا الوعد لهم بالنصر والغلبة لا ينافيه انهزامهم في بعض المواطن وغلبة الكفار لهم، فإن الغالب في كل موطن هو انتصارهم على الأعداء وغلبته لهم، فخرج الكلام مخرج الغالب، على أن العاقبة المحمودة لهم على كل حال، وفي كل موطن، كما قال سبحانه: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨](٥).

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (٣١٤٠) ٢٥/٦. وإسناده جيد كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٢٨/٦.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٥) ٣/ ١٠٣٤. ومسلم (١٩٠٤) ١٥١٢/٣. للذكر: الشهرة بين الناس. ليرى مكانه: مرتبته في الشجاعة.

(٣) انظر فتح الباري للحافظ ابن حجر ٢٨/٦.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير الجزري ٨٤٨/١. والحديث أخرجه البخاري (٢٦٣١) ١٠٢٥/٣. ومسلم (١٣٥٣) ٣/ ١٤٨٧.

(٥) فتح القدير للشوكاني ٥٩١/٤.



٤- التقوى:

التقوى هي الملَكة التي تحمل على فعل الطاعة واجتناب المعصية؛ فهي واقية من عقاب الله تعالى بطاعته [(١)]، والتقوى وصية الله إلى الأولين والآخرين: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ ﴾ [النساء: ١٣١]. كما أوصى بها النبي ﷺ في كل موطن، قال ﷺ: "**اتق الله حيثما كنت**" [(٢)]. وأوصى بها قادتَه، قال بريدة: كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومَن معه مِن المسلمين خيراً، ثم قال: "**اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً**" [(٣)].

وكذلك كان يوصي الخلفاء قادة الجيوش، كما جاء في وصية عمر لسعد رضي الله عنهما: أما بعد: فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال؛ فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش، أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة...[(٤)].

وقد أمدّ الله المؤمنين في غزوة بدر ﴿ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، ثم وعد لهم الزيادة بشرط الصبر والتقوى حثاً لهم عليهما وتقوية لقلوبهم [(٥)] فقال: ﴿ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

فالعاقبة المحمودة لأهل التقوى[(٦)]، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وهي تسلمهم من شر الأشرار وكيد الفجّار[(٧)]: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

---

(١) انظر: التعريفات للجرجاني ٩٠.

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي في السنن (١٩٨٧) ٣٥٥/٤، وقال: حديث حسن صحيح. والدارمي في السنن (٢٧٩١) ٤١٥/٢. وأحمد في المسند (٢١٣٩٢) ١٥٣/٥.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٣١) ١٣٥٦/٣. وأبو داود (٢٦١٢) ٤٣/٢. والترمذي (١٦١٧) ١٦٢/٤. وابن ماجه (٢٨٥٨) ٩٥٣/٢.

(٤) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت ٢٢٥/١.

(٥) تفسير أبي السعود ٨٠/٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري ٢٨/٦.

(٧) انظر: تفسير ابن كثير ٥٢٨/١.



وتكسبهم معية الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وهذا أمر لهم بطاعة الله وتقواه، وإخباره بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة[١]؛ فالمراد بالمعية: الولاية الدائمة [٢].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[التوبة: ١٢٣]. فالإيمان والقتال على الوجه المذكور من باب التقوى، والشهادة بكونهم من زمرة المتقين[٣]، يقول لهم: أيقنوا عند قتالكم إياهم أن الله معكم وهو ناصركم عليهم، فإن اتقيتم الله وخفتموه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه فإن الله ناصر من اتقاه ومعينه[٤]. ومن كان الله معه لم يقم له شيء[٥].

٥- الصبر والمصابرة:

أمر الله بالصبر، وأخبر أنه خير لأهله، وجاء ذلك بعدة مؤكِّدات قال تعالى: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ ﴾ [النحل: ١٢٦]، كما أخبر بمحبته للصابرين ﴿ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. وبمعيته لهم: ﴿ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]. ومن صفات المتقين صبرهم على الابتلاء بالمال والجسد ولقاء العدو كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فقد جمعت هذه الآية من أنواع الصبر ما يكون في المال من الفقر والشدة: فِي الْبَأْسَاء. وفي الجسد من المرض والزمانة: والضَّرَّاء. وفي مواطن الحرب وقت مجاهدة العدو: وَحِينَ الْبَأْسِ[٦].

والصابر حين البأس منصور لأن الله معه، وهي معية نصره وتوفيقه حتماً [٧]، مهما كانت فئتهم قليلة وفئة أعدائهم كثيرة، وقد أكد الله لنا هذا على لسان طالوت وجنوده : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فتوجهوا إلى الله تعالى أن يلهمهم الصبر والثبات والنصر: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣٠٩/١.
(٢) تفسير أبي السعود ١١٢/٤.
(٣) تفسير أبي السعود ١١٢/٤.
(٤) انظر: تفسير الطبري ٥١٧/٦.
(٥) فتح القدير للشوكاني ٦٠٤/٢.
(٦) انظر: تفسير أبي السعود ١٩٤/١.
(٧) انظر: تفسير أبي السعود ٢٤٣/١.



ولقد راعوا في الدعاء ترتيباً بديعاً حيث قدموا سؤال إفراغ الصبر الذي هو ملاك الأمر، ثم سؤال تثبيت القدم المتفرع عليه، ثم سؤال النصر الذي هو الغاية القصوى(١).

فالصبر يلازم النصر، كما قال ﷺ: "**واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيـراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا**" (٢).

وقال تعالى: ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦]، فشرط فيهم الصبر مـن أجـل الغلبة، وهذا تخفيف مما فرض عليهم أول الأمر وهو أن يصمد الواحد مقابل عشرة: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فأمرهم بالصبر: وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة: وهي حاله في الصبر مع خصمه، والمرابطة: وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، فـأخبر سـبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها فقال: ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣).

٦- الثبات عند لقاء العدو:

الثبات من توابع الصبر ومن مستلزمات النصر، فأثبتُ الفريقين أغلبُهما، وأعظم ما تـشتد الحاجة إليه عندما يضطرب الأمر، ويدبّ الذعر، وتنتشر الشائعات، وتشيع الهزيمة في نفـوس المقاتلين، وقد جاء الأمر به عند اللقاء مع العدو، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]. وهذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء(٤) أي: إذا حاربتم جماعة من الكفرة فاثبتوا للقائهم فـي

---

(١) تفسير أبي السعود ١/٢٤٤.

(٢) أخرجه أحمد في المسند من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (٢٨٠٤) ١/٣٠٧. والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٤) ٢/٢٧. وهو صحيح.

(٣) عدة الصابرين لابن قيم الجوزية ١٣. معنى: ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ أي: أقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيهـا مترصـدين للغـزو مستعدين له، قال تعالى: ﴿ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾. تفسير أبي السعود ٢/١٣٦ فالمرابطة ههنا: مرابطة الغزو في نحـور العـدو، وحفظ ثغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين. تفسير ابن كثير ١/٥٨٨.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٤١٧.

مواطن الحرب[١]، ولا تجبُنوا عنهم، وهذا لا ينافي الرخصة في قوله: ﴿ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ ﴾ [الأنفال: ١٦]، فإن الأمر بالثبات هو في حال السعة، والرخصة هي في حال الضرورة، وقد لا يحصل الثبات إلا بالتحرف والتحيّز.

ثم أمر بالذكر؛ فإن ذكر الله يعين على الثبات في الشدائد، وقيل المعنى: اثبتوا بقلوبكم واذكروا بألسنتكم فإن القلب قد يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان، فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان[٢].

وقد جاء في دعاء طالوت وأصحابه، لما برزوا لجالوت وجنوده، طلبُ الثبات: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٠]. فكانت العاقبة لهم: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ومن دعاء المجاهدين – أصحاب الأنبياء– بالثبات: ﴿ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، فكانت الغلبة لهم: ﴿ فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

كما وعد الله من ينصر دينه بأن ينصره ويثبته، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧]. أي: يقوّكم عليهم ويجرّئكم حتى لا تولوا عنهم وإن كثر عددهم وقل عددكم[٣]. وتثبيت الأقدام عند القتال، أو على الإسلام أو على الصراط. أو المراد: تثبيت القلوب بالأمن؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب، وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ [الأنفال: ١٢]، فأثبت هناك واسطة ونفاها هنا، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ ﴾ [السجدة: ١١]، ثم نفاها بقوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ [الروم: ٤٠] [٤].

وكما يكون الثبات حسياً يكون معنوياً، فيثبت المقاتل أمام شائعات العدو وأراجيفهم بما آتاه الله من قوة إيمان وسلامة عقيدة.

ومما يعين على الثبات ذكر الله والدعاء .

٧-٨- الاتصال بالله بالذكر والدعاء:

جاء الأمر بذكر الله كثيراً عند ملاقاة الأعداء في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]، فأمر بالثبات وأمر بما يعين عليه وهو الذكر،

(١) تفسير أبي السعود ٢٥/٤.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٤٥٧/٢.

(٣) تفسير الطبري ٣٠٩/١١.

(٤) تفسير القرطبي ٢٣٢/١٦.



فإن ذكر الله يعين على الثبات في الشدائد، ويمنح الطمأنينة والسكينة حيث يشعر المقاتل بأنه لا يقاتل وحده، بل الله معه، فيثبت القلب على اليقين ويثبت اللسان على الذكر، وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة، واتقاد البصيرة، وهي الشجاعة المحمودة في الناس(١).

قال قتادة: افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون؛ عند الضراب بالسيوف(٢).

وعن كعب الأحبار قال: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥](٣).

وقال محمد بن كعب القرظي: لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا، يقول الله عز وجل: ﴿ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً ﴾ [آل عمران: ٤١]، ولرخص للرجل يكون في الحرب، يقول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥] (٤).

وفي هذا تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله تعالى، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد، ويقبل إليه بكليته، فارغ البال، واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في حال من الأحوال (٥).

وهذا كله على تفسير الذكر بالذكر المطلق، وفيه قول آخر وهو تفسيره بالدعاء، قال ابن الجوزي: ﴿ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه الدعاء والنصر، والثاني: ذكر الله على الإطلاق (٦).

وعلى تفسير الذكر بالدعاء جاء تفسيره عند الطبري وغيره، ﴿ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً ﴾ يقول : وادعوا الله بالنصر عليهم والظفر بهم وأشعروا قلوبكم وألسنتكم ذكره(٧).

وقد جعل الله الدعاء والاستغاثة به سبباً للثبات والنصر على الأعداء؛ فقد جاء في دعاء طالوت وأصحابه، لما برزوا لجالوت وجنوده: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٠]. فكان عنده النصر والظفر: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ٢٣/٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٦٠/٦.

(٣) تفسير ابن كثير ٤١٧/٢.

(٤) تفسير القرطبي ٨٢/٤.

(٥) تفسير أبي السعود ٢٥/٤.

(٦) زاد المسير لابن الجوزي ٣٦٥/٣.

(٧) تفسير الطبري ٢٦٠/٦. وانظر: تفسير البغوي ٢٥٣/٢. والوجيز للواحدي ٤٤٣ . وتفسير الجلالين ٢٣٤.



ومن دعاء المجاهدين أيضاً: ﴿ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، فكانت العاقبة لهم: ﴿ فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

كما جعله سبباً للمدد والغوث من الله: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩].

وقد قضى النبي ﷺ ليلة غزوة بدر بالدعاء والاستنصار بالله والاستغاثة به، وهو في قبّته: "**اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم**"، فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله، ألحَحْت على ربك، وهو يَثِب في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥] (١).

وكان رسول الله ﷺ إذا غزا قال: "**اللهم أنت عضُدي ونصيري، بك أَحول، وبك أَصول، وبك أُقاتل**" (٢).

وكان إذا خاف قوماً قال: "**اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم**" (٣).

كما أن التحام الصفوف سبب من أسباب استجابة الدعاء، قال ﷺ: "**ثنتان لا تردّان أو قلّما تردّان : الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً**" (٤).

إن ذكر الله ودعاءه عند لقاء العدو، يؤدي وظائف شتى: إنه الاتصال بالقوة التي لا تغلب، والثقة بالله الذي ينصر أولياءه، ويهلك أعداءه، وهو في الوقت ذاته استحضار لحقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها، فهي معركة لله، لتكون كلمة الله هي العليا، لا للسيطرة، ولا للمغنم، ولا للاستعلاء الشخصي أو القومي. كما أنه توكيد لهذا الواجب – واجب ذكر الله – في أحرج الساعات وأشد المواقف (٥).

٩- التوكل على الله وحده:

التوكل على الله يمنح المؤمن قوة لا تعادلها قوة، لذلك يكون النصر حليف المتوكلين، قال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٩٤) ١٨٤٥/٤. وأحمد في المسند (٣٠٤٣) ٣٢٩/١.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٣٢) ٤٨/٢. والترمذي (٣٥٨٤) ٥/ ٥٧٢. وقال: حديث حسن غريب. ونقل النووي عن الترمذي أنه قال: حديث حسن. انظر: رياض الصالحين ٣٨٨.

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٣٧) ٤٨٠/١. إسناد صحيح. انظر: رياض الصالحين ٣٨٨.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٥٤٠) ٢٥/٢. إسناد صحيح. انظر: رياض الصالحين ٣٨٨.

(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١٥٢٨/٣.



والتوكل هو: قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب(١). كما قال ﷺ: "**اعقلها وتوكل**"(٢)؛ فهو اعتماد القلب على الله تعالى في كل الأمور مع إتيان الأسباب المشروعة؛ إذ سنة الله جارية بترتيب النتائج على الأسباب، ولكن الأسباب ليست هي التي تنشئ النتائج.

أما ترك الأسباب فهو تواكل، وليس من التوكل في شيء، وهو مخالف للهدي النبوي، فقد ثبت أن النبي ﷺ ظاهَر في أُحد بين درعين، ودخل مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر(٣)، وأقعد الرماة على فم الشعب في أُحد ، وخندقَ حول المدينة يوم الأحزاب، وأخذ بكافة الأسباب الممكنة وهوسيد المتوكلين ﷺ.

وقد أخبرنا الله عن المقاتلين في أعقاب غزوة أُحد عندما ﴿ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. أي: محسبنا الله وكافياً، ونعم الموكول إليه الله(٤)؛ فكانت النتيجة: ﴿ فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (٥).

١٠- نصرة دين الله تعالى:

نصر الله يتحقق بنصرة شريعته؛ باتباع أوامره واجتناب نواهيه؛ بالعمل بدينه، وتحكيمه في الحياة، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، ونصرة نبيه ﷺ، وأوليائه (٦)، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

ينصركم بنصركم عليهم، ويظفركم بهم؛ فإنه ناصر دينه وأولياءه(٧). ويثبت أقدامكم في القيام بحقوق الإسلام، والمجاهدة مع الكفار(٨).

(١) فتح الباري لابن حجر ٣٨٤/٣.
(٢) أخرجه الترمذي السنن (٢٥١٧) ٦٦٨/٤. وابن حبان في الصحيح (٧٣١) ٥١٠/٢. وهو حديث حسن.
(٣) انظر: شعب الإيمان للبيهقي (١٢٠٤) ٧٨/٢.
(٤) تفسير أبي السعود ١١٤/٢.
(٥) أخرجه البخاري (٤٢٨٧) ١٦٦٢/٤.
(٦) انظر: تفسير القرطبي ٢٣٢/١٦.
(٧) تفسير الطبري ٣٠٩/١١.
(٨) تفسير البيضاوي ١٩٠/٥.



ويدل على هذا المعنى أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠]. أي: وليعينن الله من يقاتل في سبيله لتكون كلمته العليا على عدوه؛ فنصر الله عبده: معونته إياه ونصر العبد ربه: جهاده في سبيله لتكون كلمته العليا. إن الله لقوي على نصر من جاهد في سبيله من أهل ولايته وطاعته، عزيز في ملكه، منيع في سلطانه لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب(١)، ومن كان القوي العزيز ناصره فمن يقهره؟

ولقد أنجز الله – عز سلطانه – وعده، حيث سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم، وأورثهم أرضهم وديارهم(٢).

وهذا النصر لمن ينصر الله في سائر الأزمان؛ لذلك بيّن صفة ناصريه بقوله: ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١]، وهي أوصافٌ يَتَحَلَّى بها المؤمنُ بعدَ أن يمكّن الله له في الأرضِ، فيَزيدُه النصرُ والتمكينُ قوةً في دين الله وتَمسُّكاً بشرعته ومنهاجه وآدابه.

١١- طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ :

أمر الله تعالى المؤمنين بطاعته فيما يأمرهم به، وطاعة رسوله ﷺ فيما يرشدهم إليه، وحذر من مخالفة رسوله ﷺ فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠] أي لا تتولوا عن الرسول ﷺ، فإن المراد هو الأمر بطاعته والنهي عن الإعراض عنه، وذكَر طاعته تعالى للتمهيد والتنبيه على أن طاعته تعالى في طاعة رسوله ﷺ : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] وقوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ جملة حالية واردة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولي مطلقاً، لا لتقييد النهي عنه بحال السماع، أي: لا تتولوا عنه والحال أنكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته، والمواعظ الزاجرة عن مخالفته، سماع فهم وإذعان(٣)؛ لأن التولي عنه ومخالفته معصية تحبط العمل: قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٣]. قال الطبري: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول في أمرهما ونهيهما، ولا تبطلوا بمعصيتكم إياهما وكفركم بربكم ثواب أعمالكم، فإن الكفر بالله يحبط السالف من العمل الصالح(٤).

كما جعلها الله من عوامل النصر التي ذكرها في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ * وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ

---

(١) تفسير الطبري ١٦٢/٩.

(٢) تفسير أبي السعود ١٠٩/٦.

(٣) تفسير أبي السعود ١٥/٤-١٦.

(٤) تفسير الطبري ٣٢٦/١١.



مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦]،؛ لأن الطاعة توحّد الصف، وتمحو الخلاف ، وتُكسب القوة في مواجهة العدو.

وكما أمرنا الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله ﷺ أمرنا بطاعة أولي الأمر من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء: ٥٩]. وأولو الأمر هم: العلماء والأمراء؛ فتجب طاعتهم فيما وافق الحق(١)، فالطاعة تكون لله ولرسوله ﷺ، وتكون للقيادة المؤمنة، « إنها طاعة القيادة العليا فيها، التي تنبثق منها طاعة الأمير الذي يقودها، وهي طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية في الجيوش التي لا تجاهد لله، ولا يقوم ولاؤها للقيادة على ولائها لله أصلاً »(٢). وقد جاءت الوصية بالطاعة والتحذير من المعصية في كثير من وصايا الخلفاء لأمراء الجيوش(٣).

يقول الحافظ ابن كثير: وقد كان للصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله به وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً، في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم ، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين ، وحشرنا في زمرتهم إنه كريم وهاب(٤).

١٢- وحدة صف الأمة (وتجنب التنازع والشقاق):

توحيد صف المسلمين، وجمع كلمتهم لإعلاء كلمة الله تعالى من أجلّ مقاصد الإسلام، فقد أمر الله بالجماعة ونهى عن الفُرقة بقوله: ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. كما قال: ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

(١) انظر: الوجيز للواحدي ٢٧١.

(٢) في ظلال القرآن ١٥٢٩/٣.

(٣) انظر ما كتبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص، ومن معه من الأجناد رضي الله عنهم، في : جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت ٢٢٥/١. وقد تقدم بعض هذه الوصية ص ١٢.

(٤) تفسير ابن كثير ٤١٧/٢.



وإن الله لَيرضى من عباده المؤمنين إذا صفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان(١): ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤]. صافين أنفسهم، أو مصفوفين. مشبهين في تراصهم من غير فرجة وخلل ببنياناً رُصّ بعضه إلى بعض، ورصف حتى صار شيئاً واحداً (٢)، قال الفراء: مرصوص بالرصاص. قال المبرد: هو مأخوذ من رصصت البناء: إذا لايمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة، وقيل: هو من الرصيص وهو ضم الأشياء بعضها إلى بعض، والتراص : التلاصق (٣). وهذا الصف الظاهري ينبئ عن وحدة وتماسك داخلي.

وقد جعل الله اتفاق الكلمة وعدم التنازع من أسباب النصر، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ * وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦]

ومن كلام ابن القيم في استنباطه أسباب النصر من هاتين الآيتين : (الرابع: اتفاق الكلمة وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن، وهو جند يقوّي به المتنازعون عدوهم عليهم، فإنهم في اجتماعهم كالحزمة من السهام لا يستطيع أحد كسرها، فإذا فرقها وصار كل منهم وحده كسرها كلها)(٤).

ويعلل سيد قطب الفشل الناتج عن التنازع بأنه اتباع الهوى، يقول: فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه، وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار، فإذا استسلم الناس لله ورسوله ﷺ انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم – مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة – فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصرّ عليها مهما تبين له وجه الحق فيها؛ وإنما هو وضع الذات في كفة، والحق في كفة، وترجيح الذات على الحق ابتداء (٥)!

١٣- الحذر الدائم والتيقظ:

أمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً ﴾ [النساء: ٧١] أي: تيقظوا واحترزوا من العدو ولا تمكنوه من أنفسكم

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٥٨.

(٢) تفسير أبي السعود ٨/٢٤٣.

(٣) فتح القدير ٥/٣٠٨.

(٤) الفروسية لابن القيم ٥٠٦.

(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/١٥٢٨-١٥٢٩.



يقال: أخذ حذره إذا تيقظ واحترز من المخوف، كأنه جعل الحذر آلته التي يقي بها نفسه. وقيل: هو ما يحذر به من السلاح والحزم، أي: استعدوا للعدو(١).

وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد وتكثير العدد بالنفير في سبيل الله، فينفِروا جماعة بعد جماعة وفرقة بعد فرقة وسرية بعد سرية (٢)، أو ينفروا مجتمعين جيشاً واحداً (٣)، وهذا حسب ما تقتضيه طبيعة المعركة؛ فالأمر لهم بأن ينفروا على أحد الوصفين ليكون ذلك أشد على عدوهم، وليأمنوا من أن يتخطفهم الأعداء إذا نفر كل واحد منهم وحده أو نحو ذلك(٤).

وهذا في العدو الخارجي الظاهر لهم ، لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، فهناك عدو داخلي من المنافقين المندسّين بين صفوف المسلمين، متربصين بهم، وهؤلاء لهم دور كبير في تثبيط همم المؤمنين الصادقين وتخذيلهم وتأخيرهم عن القيام بواجب الجهاد، والتآمر عليهم مع اليهود والمشركين، يتحينون الفرَص لذلك، فطلب الله من المؤمنين أن يكونوا على تيقظ وحذر واحتراز من هؤلاء أيضاً، وقد جاء من وصفهم قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ [النساء: ٧٢] أي: ليتثاقلن وليتخلفن عن الجهاد (من بطأ بمعنى أبطأ)، والخطاب لعسكر رسول الله ﷺ كلهم؛ المؤمنين منهم والمنافقين، والمبطئون منافقوهم الذين تثاقلوا وتخلفوا عن الجهاد. أو ليبطئن غيرَه ويثبطنّه (من بطأ منقولاً من بَطُؤَ)، كما بطّأ ابن أُبيّ ناساً يوم أُحد(٥)، فانخذل بثلث الجيش.

وهذا المبطِّئ إذا تأخر عن الجهاد يقول إن أصابتكم مصيبة من قتل وشهادة وغلب العدو لكم – لما لله في ذلك من الحكمة – يقول: قد أنعم الله عليّ إذ لم أحضر معهم وقعة القتال. يَعُدّ ذلك من نعم الله عليه، ولم يدْرِ ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل!

ولئن أصابكم نصر وظفر وغنيمة ليقولن: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً بأن يضرب لي بسهم معهم، فأحصل عليه، وهو أكبر قصده وغاية مراده(٦).

لقد عمل المنافقون بكل خطة تبعد النصر عن المؤمنين؛ فعملوا على إضعاف هممهم ، وتثبيطهم عن الجهاد، وزرع الفتنة والفساد فيما بينهم، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [التوبة: ٤٧–٤٨]؛ فمن تثبيطهم: ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ

(١) تفسير أبي السعود ٢/٢٠٠.
(٢) تفسير ابن كثير ١/٦٩٧.
(٣) فتح القدير ١/٧٣٣.
(٤) فتح القدير ١/٧٣٣.
(٥) تفسير أبي السعود ٢/٢٠٠.
(٦) تفسير ابن كثير ١/٦٩٧.



الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ [آل عمران: ١٥٤]: ﴿ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٧]: ﴿ الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ [آل عمران: ١٦٨] : ﴿ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ ﴾ [التوبة:٨١] :﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ [الأحزاب: ١٢] ، ومن أعذارهم للتخلف عن الجهاد: ﴿ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ [المائدة: ٥٢] : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ [الأحزاب: ١٣]؛ **لذلك نهى الله نبيه ﷺ عن طاعتهم فقال:** ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٤٨] ، **وأمر بتطهير الجيش منهم:** ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ [التوبة: ٨٣].

١٤- إعداد العدة:

أمر الله المؤمنين بإعداد الجهاد وآلة الحرب، وما يتقوون به على جهاد عدوه وعدوهم من المشركين؛ من السلاح والرمي وغير ذلك، ورباط الخيل[١]، قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠]؛ فهو يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها[٢]؛ من كل ما يتقوى به في الحرب كائناً ما كان[٣]، إلى أقصى حدود الطاقة، بحيث لا يقعد المسلمون عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتهم[٤]، والرباط: اسم للخيل التي تربط في سبيل الله تعالى، وعطفها على القوة مع كونها من جملتها للإيذان بفضلها على بقية أفرادها[٥]، كما ورد تفسير القوة بالرمي في قول النبي ﷺ وهو على المنبر: "**ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**"[٦]، ولعل تخصيصه إياه بالذكر لإنافته على نظائره من القوى[٧].

والغرض من إعداد القوة هو إلقاء الرعب والرهبة في قلوب أعداء الله الذين هم أعداء المسلمين في الأرض؛ الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون، ومَن وراءهم ممن لا يعرفونهم، أو لم يجهروا

(١) تفسير الطبري ٢٧٤/٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١٥٤٣/٣.

(٣) تفسير أبي السعود ٣٢/٤.

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١٥٤٤/٣.

(٥) تفسير أبي السعود ٣٢/٤.

(٦) أخرجه مسلم (١٩١٧) ١٥٢٢/٣. وأبو داود (٢٥١٤) ١٦/٢. والترمذي (٣٠٨٣) ٢٧٠/٥. وابن ماجه (٢٨١٣) ٢/ ٩٤٠. والدارمي (٢٤٠٤) ٢٦٩/٢.

(٧) تفسير أبي السعود ٣٢/٤.



لهم بالعداوة. وهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد بالفعل إليهم، وأن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الاعتداء على المسلمين، أو الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية(١).

فالمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء ، وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة مادياً ومعنوياً سياسياً وإعلامياً واقتصادياً وعسكرياً بالأسلحة المتطورة والجنود الأكفاء، ليكونوا مرهوبي الجانب، ولتكون كلمة اللّه هي العليا.

وهذا الإعداد هو إعداد للسلاح والتدرب عليه، وإعداد للمال الذي يجهز به الجيش والسلاح، وكذلك هو إعداد للجندي الذي يستخدم السلاح وللقائد الذي يدير المعركة، وهذا كله من أسباب النصر:

فوجود القيادة المؤمنة القوية من أسباب النصر؛ إذ لا يتصور أن تقوم معركة ناجحة يتحقق فيها النصر دون أن تكون هناك قيادة ناجحة، وقد كان النبي ﷺ هو القائد العام في عصره، كما كان يختار القادةَ ويعدّهم لتحمّل المسؤولية، وكذلك كان الخلفاء من بعده نافذي البصيرة في اختيار القادة، كاختيار أبي بكر لخالد بن الوليد في حروب الردة والحروب الفارسية، واختيار عمر لسعد بن أبي وقاص في القادسية، والنعمان بن مقرن في نهاوند، وأبي عبيدة في فتوح الشام، وغير هؤلاء وهؤلاء.

والقائد الناجح ينبغي أن تتحقق فيه جملة صفات أهمها:

١- القابلية على إعطاء القرار السريع الصحيح: ويستند هذا إلى عاملين: القابلية العقلية للقائد، والحصول على المعلومات من خلال دوريات القتال والاستطلاع والعيون واستنطاق الأسرى والاستطلاع الشخصي واستشارة ذوي الرأي.

٢- الشجاعة الشخصية. ٣- الإرادة القوية الثابتة. ٤- تحمّل المسؤولية بلا تردد.

٥- معرفة مبادئ الحرب. ٦- نفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار.

٧- سبق النظر. ٨- معرفة نفسيات مرؤوسيه وقابلياتهم. ٩- ثقة قطعاته به وثقته بقطعاته.

١٠- المحبة المتبادلة بينه وبين قواته. ١١- شخصية قوية نافذة. ١٢- قابلية بدنية. ١٣- ماضٍ ناصع مجيد.

هذه هي الصفات المثالية للقائد الممتاز، وهي نتيجة لدراسة شخصيات أبرز القادة في التاريخ؛ لذلك هي مجموعة من مزايا شخصيات كثيرة لا شخصية واحدة، ومن الممكن أن تتوفر في شخص واحد(٢).

هذه الصفات الممتازة للقائد تحتاج إلى جندي ممتاز يتحلى بصفات أهمها:

١- عقيدة راسخة. ٢- معنويات عالية. ٣- ضبط قوي.

٤- تدريب جيد. ٥- تنظيم صحيح. ٦- تسليح ممتاز.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/١٥٤٣.

(٢) الرسول القائد، محمود شيت خطاب ٣٠٠-٣٠١.



تلك هي مزايا الجندي الممتاز في كل زمان ومكان[1].

فالقيادة الممتازة التي تتحلى بهذه الصفات، إذا اجتمعت مع جيش يتحلى بصفات الجندي الممتاز تحقق النصر والتمكين بإذن الله تعالى.

وإعداد المال للجهاد في سبيل الله وردت فيه آيات وأحاديث كثيرة، تأمر وترغّب فيه، منها قوله تعالى: ﴿ انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١]. وجاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار حين جهز جيش العُسْرة، ففرغها عثمان في حجر النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ يقلّبها ويقول : "**ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد هذا اليوم**" قالها مراراً [2].

وقد طَمْأن الله المنفقين بأن لا يضيع لهم عند الله أجر الإنفاق في الآخرة، وعاجل خلفه في الدنيا؛ فما أنفقتم أيها المؤمنون من نفقة في شراء آلة حرب من سلاح أو حراب أو كراع أو غير ذلك من النفقات في جهاد أعداء الله المشركين يخلفه الله عليكم في الدنيا، ويدّخر لكم أجوركم على ذلك عنده حتى يوفيكموها يوم القيامة[3].

وقد أمر الإسلام بالتدريب على السلاح، ونهى عن التخلف عنه، وشجع المتفوقين فيه، وكرَّمهم في حياتهم وبعد موتهم؛ إذ لا قيمة لأي سلاح إلا باستعماله، والتدريبُ على استعماله تدريباً راقياً دائباً هو الذي يمنح المقاتل ثقته بسلاحه، وحرْص المسلمين على التدريب، وتفوقهم فيه، كان سبباً من أسباب انتصارهم في المعارك التي خاضوها[4].

وقد رغّب النبي ﷺ بالرمي وركوب الخيل – وهو سلاح ذلك العصر– وحذّر من ترك الرمي فقال: "**إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثةَ نفرٍ الجنةَ؛ صانعَه يحتسب في صنعه الخير والرامي به ومنبله، وارموا واركبوا وأن ترموا أحَبّ إليّ من أن تركبوا، وليس اللهو إلا في ثلاثة؛ تأديب الرجل فرسه وملاعبته امرأته ورميه بقوسه ونبله، ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة كفرها – أو – قال كفر بها**" [5]. وتعلم الفروسية واستعمال الأسلحة فرض كفاية، وقد يتعين[6]. أي يصير فرض عين.

---

(١) الرسول القائد، محمود شيت خطاب ٣٢٦.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٥٥٣) ١١٠/٣. وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. والترمذي (٣٧٠١) ٦٢٦/٥. وقال : حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٣) تفسير الطبري ٢٧٤/٦.

(٤) انظر: العسكرية العربية الإسلامية، محمود شيت خطاب ١٠٧–١٠٨.

(٥) أخرجه النسائي في السنن (٣٥٧٨) ٢٢٢/٦. وأبو داود (٢٥١٣) ١٦/٢. والترمذي (١٦٣٧) ١٧٤/٤. وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٢٨١١) ٩٤٠/٢. والدارمي (٢٤٠٥) ٢٦٩/٢، وإسناده جيد.

منبله: هو الذي يناوله النبل واحداً واحداً، ويرد عليه النبل المرمي به.

(٦) تفسير القرطبي ٣٦/٨.



وإذا كان الرمي والفروسية أساليب الجهاد في القديم، فهذا يتطلب أن يبذل المسلمون أقصى استطاعتهم في تعلم وابتكار الأساليب القتالية الحديثة، ومتابعة التقدم العلمي، ودراسة آخر نتائج الفكر العسكري، بل إن الإسلام قد حض على أبعد من ذلك وهو أن يعتمد المسلمون على التصنيع الحربي، ولا يعتمدوا على عدوهم أن يصدّر لهم السلاح؛ إذ لا يعقل أن يعطي العدو المسلمين سلاحاً قوياً متطوراً ليضربوه به، ولعل هذا المعنى نلمحه من الحديث النبوي السابق : "صانعه يحتسب في صنعه الخير" ومن الحديث الذي يرويه علي بن أبي طالب ﷺ قال: كانت بيد رسول الله ﷺ قَوْس عربية، فرأى رجلاً بيده قوس فارسية، فقال: "**ما هذه؟ أَلْقِها، وعليك بهذه وأشباهها، ورِماح القَنَا، فإنهما يؤيد الله بهما في الدِّين، ويمكِّن لكم في البلاد**"(١). وقد أجاب ابن القيم عن هذا الحديث، بأن النهي كان في وقت مخصوص وهو حين كانت العرب هم عسكر الإسلام وقسيّهم العربية، فكلامهم بالعربية، وأدواتهم عربية، وفروسيتهم عربية، وكان الرمي بغير قسيهم والكلام بغير لسانهم حينئذ تشبهاً بالكفار من العجم وغيرهم(٢).

لكن يمكن أن نفهم من هذا الحديث أن يعتمد المسلمون على السلاح الوطني، تصنيعاً وتدريباً .

١٥- إذكاء الروح المعنوية:

من الأسباب المساعدة على حصول النصر رفع الروح المعنوية لدى المقاتل؛ إذ لا قيمة لأي جيش ما لم تكن معنوياته عالية، وقد اعتنى الإسلام بهذا الجانب؛ فقد كان النبي ﷺ يشجع أصحابه قبل المعارك وأثناءها؛ ففي غزوة بدر فيما يرويه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ... دنا المشركون، فقال رسول الله ﷺ: "**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**" قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: "**نعم**". قال: بخ بخ. فقال رسول الله ﷺ: "**ما يحملك على قولك بخ بخ**" قال: لا، والله يا رسول الله! إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: "**فإنك من أهلها**". فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل(٣).

بل إن الأحداث الصغار كانت معنوياتهم عالية، قال عبد الرحمن بن عوف: إني لفي الصف يوم بدر إذ التفتّ فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما ، إذ قال لي

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٨١٠) ٩٣٩/٢. وإسناده ضعيف. وأبو داود الطيالسي في المسند (١٥٤) ٢٣. والطبراني في المعجم الكبير (٣٥١) ١٤١/١٧.

(٢) الفروسية لابن القيم ٤٢٣. كما ذكر احتمالاً آخر وهو أن يكون منَع الرجل من حملها لعدم معرفته بها، وتكلفه الرمي بها، والخروج عن عادته وعادة أهل الإسلام حينئذ، ولهذا قال: ((وعليكم برماح القنا)) فلو قاتلنا أمة لا تنفع معهم الرماح بل السهام والسيوف لم تستعمل الرماح حينئذ، واستعمل معهم ما يخافون شوكته من السلاح.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠١) ١٥٠٩/٣. قرنه: جعبة النشاب.



أحدهما سراً من صاحبه: يا عم، أرني أبا جهل. فقلت: يا ابن أخي، وما تصنع به! قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه. فقال لي الآخر سراً من صاحبه مثله، قال: فما سرني أني بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدّا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه ، وهما ابنا عفراء(١).

وبعد أُحد خاطب الله المؤمنين يشجعهم ويقوي قلوبهم ويسليهم عما أصابهم يوم أُحد من القتل والقرح: ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. أي: لا تضعفوا عن الجهاد بما نالكم من الجراح، ولا تحزنوا على من قتل منكم، وأنتم الأعلون الغالبون دون عدوكم؛ فإن مصير أمرهم إلى الدمار، حسبما شاهدتم من أحوال أسلافهم، فهو تصريح بالوعد بالنصر والغلبة بعد الإشعار به(٢).

كما أمرهم أن لا يضعفوا في طلب أبي سفيان ومن معه حين انصرفوا من أُحد فقال: ﴿ وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [النساء: ١٠٤]. فليس ما تقاسونه من الآلام مختصاً بكم بل هو مشترك بينكم وبينهم، ثم إنهم يصبرون على ذلك، فما لكم لا تصبرون! مع أنكم أولى به منهم، حيث ترجون من الله من إظهار دينكم على سائر الأديان، ومن الثواب في الآخرة مالا يخطر ببالهم(٣).

فخرج النبي ﷺ بأصحابه الذين اشتركوا بأُحد فقط في اليوم الثاني من أُحد، لمطاردة قوات قريش، فلما وصل موضع حمراء الأسد جاءه من يخبره بأن قريشاً قررت السير إليه، فلم تتضعضع معنويات المسلمين، وقرروا لقاء قريش، وبقوا ينتظرون هناك هذا الوعيد ثلاثة أيام، فلما علموا بانسحاب قريش عادوا أدراجهم إلى المدينة.

وبهذه الحركة الجريئة استرد المسلمون كثيراً من مكانتهم التي فقدوها في أُحد؛ فخفّفت من وقع الهزيمة في أُحد، وردّت إليهم معنوياتهم، وأدخلت الرهبة إلى روع اليهود والمنافقين، وأعادت لهم سلطانهم بيثرب قوياً كما كان(٤).

وكما عمل الرسول ﷺ على رفع معنويات أصحابه في سائر الغزوات عمل على تحطيم معنويات أعدائه بشتى الطرق والمناسبات، وما كانت غزوة الحديبية وعمرة القضاء وغزوة تبوك إلا معارك معنويات لا معارك ميدان.

(١) أخرجه البخاري (٣٧٦٦) ١٤٦٤/٤. وانظر: البداية والنهاية لابن كثير ٢٨٨/٣.
لم آمن بمكانهما: أي خشيت أن ينالني العدو من جهتهما، فلا يستطيعان حمايتي لأنهما صغيران.
(٢) تفسير أبي السعود ٨٩/٢.
(٣) تفسير أبي السعود ٢٢٨/٢.
(٤) الرسول القائد، محمود شيت خطاب ١١٨-١١٩.



إن عمرة القضاء فتحت قلوب أهل مكة لأنها حطمت معنوياتهم، وغزوة الفتح فتحت أبواب مكة، كما أن نتيجة غزوة تبوك اندحار معنوي للروم، وبذلك اطمأن العرب إلى أنــه بإمكـــانهم مقاتلة الروم، وكانوا سابقاً يظنون أن ذلك من المستحيلات.

إن أكثر غزوات الرسول ﷺ كانت معارك معنويات تؤثر على النفوس والقلوب لا معـــارك خسائر تؤثر على الأرواح والممتلكات(١)،إنه كان حريصاً على هدايتهم وقتل كفرهم لا قتلهم هم.

هذه أهم الأسباب الموجبة للنصر، نسأل الله تعالى أن يهيئ هذه الأمة لتحقيقها ونيله.

المبحث الثالث : أسباب الهزيمة .

إن نصر الله جل وعز متحقق لمن يحقق أسبابه، فإذا تخلفت هذه الأسباب والشروط تخلــف النصر وحلّت الهزيمة، فأسباب الهزيمة هي ضد أسباب النصر المتقدم ذكرها؛ لهــذا لا نطيــل الكلام عليها، وأهم هذه الأسباب:

١- المخالفة والمعصية :

المعصية ومخالفة القائد من أسباب الهزيمة، وهو نقص في إيمان المقاتل، قال ابن القيم: من نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد؛ ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله أو بإدالة عدوه عليه فإنما هي بذنوبه؛ إما بترك واجب، أو فعل محرم، وهو من نقص إيمانه(٢).

والمثال الحي الواضح لأثر المعصية ما حصل في يوم أُحد، وقد ابتدأت المخالفة قبــل المعركـــة، عندما أخبرهم النبي ﷺ برؤياه: "**قد رأيت والله خيراً، رأيت بقراً تذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلمـــاً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، فأوّلْتُها المدينة**"(٣). لكن الشباب المتحمس ألحّ على النبي ﷺ في الخروج إليهم، ومن هنا بدأت الهزيمة، وفي الطريق انخذل عبد الله بن أبيّ بثلث الجيش، معلياً حظ النفس على العقيدة، وهذه الخطوة الثانية في الهزيمة، وفي المعركة أنزل الله نصره علـــى المــؤمنين، فحسّوهم بالسيوف حتى كشفت قريش وكانت الهزيمة، لكن الرماة الذين أوصاهم النبي ﷺ وشدد عليهم في الوصية أن لا يبرحوا أماكنهم: "**إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هَزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا، حتى أرسل إليكم**"(٤). لكنهم خالفوا فانقلبــت كفـــة النصر إلى هزيمة، وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ

---

(١) الرسول القائد، محمود شيت خطاب ٣٢٩.

(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم ١٨٢/٢.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١١/٤. وانظر: مسند الإمام أحمد (٢٤٤٥)١٧١/١ وإسناده حسن. ومستدرك الحاكم (٢٥٨٨) ١٤١/٢ وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٧٤) ١١٠٥/٣. وأبو داود (٢٦٦٢) ٥٨/٢. وانظر: البداية والنهاية ٢٥/٤.



وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

قال الطبري: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ : حتى إذا جبنتم وضعفتم، ﴿ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ ﴾. يقول: واختلفتم في أمر الله. ﴿ وَعَصَيْتُم ﴾ يقول: وخالفتم نبيكم ﷺ، فتركتم أمره، وما عهد إليكم. وإنما يعني بذلك الرماة الذين كان ﷺ أمرهم بلزوم مركزهم، ومقعدهم من فم الشعب بأُحد، بإزاء خالد بن الوليد ومن كان معه من فرسان المشركين... [١].

لقد تفرّق الصف لتفرق الدوافع: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

لقد كانت أُحد درساً بليغاً في الالتزام بالطاعة، والأخذ بأسباب النصر والتمكين.

٢-٣-٤- البطر والرياء والصد عن دين الله :

وهذا ما حذّر الله منه المؤمنين بعد أن بين لهم عوامل النصر في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ * وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦]، فحذّر الله المؤمنين أن يتشبهوا بحال الكافرين – حال خروجهم للجهاد في سبيله – من البطر والرياء والصدّ عن سبيل الله بقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال: ٤٧]؛ لأن نتيجة هذه الأمراض الهزيمة، كما حلّ بقريش يوم بدر.

٥-٦- الغفلة عن الله والاتكال على الأسباب:

الأخذ بالأسباب من لوازم النصر، لكن ينبغي أن لا نتكل على هذه الأسباب وننسى مسببها جل وعلا، فإذا كان الجيش كبيراً مدرباً مسلحاً، ينبغي أن لا ينسى أن النصر من عند الله لا بهذه الجاهزية، وقد كان للمسلمين درس عظيم في غزوة حُنين عندما أعجب الصحابة بأنفسهم وبكثرتهم، وغفلوا عن مُنزل النصر ومالكه، وقالوا: لن نغلب اليوم من قلة؛ فكانت الهزيمة[٢]، فما أغنت عنهم الكثرة شيئاً، وسجّل الله لهم هذا الدرس بقوله: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥]، ونصر نبيه ﷺ بقلّة مؤمنة، وبجند من عنده: ﴿ ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٦].

---

(١) تفسير الطبري (٦/١٣٦).

(٢) انظر: البداية والنهاية ٣٢٢/٤.



٧- موالاة الكفار والمشركين:

من أسباب الهزيمة موالاة الكفار، وقد نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار لأي سبب من الأسباب(١)، قال تعالى: ﴿ لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. نُهوا عن موالاتهم لقرابة أو صداقة جاهلية ونحوهما من أسباب المصادقة والمعاشرة، حتى لا يكون حبهم ولا بغضهم إلا لله تعالى، أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية(٢).

ومثله قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة: ١]. يعني المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم، ونهى أن يُتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٥١] وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد(٣). فكيف يرتجى نصر من يواليهم!

٨- بطانة السوء:

من أسباب الهزيمة إفشاء أسرار جيش المسلمين، وهذا يكون عن طريق البطانة السيئة من المنافقين ومدخولي الإيمان، وقد نهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة أي: يطلعونهم على سرائرهم، وما يضمرونه لأعدائهم. والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالاً أي: يسْعون في مخالفتهم وما يضرّهم بكل ممكن، وبما يستطيعون من المكر والخديعة، ويودون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨]. وقوله تعالى: ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ أي: من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل هم: خاصة أهله الذين يطلعون على داخلة أمره. وقد قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتباً. فقال: قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين(٤).

---

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني ٥٠٠/١.

(٢) تفسير أبي السعود ٢٣/٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٤٤٢/٤. وقوله: ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ أي: تسرون إليهم الأخبار بسبب المودة . فتح القدير للشوكاني ٢٩٤/٥.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم. انظر: تفسير ابن كثير ٥٢٨/١.



يقول ابن كثير: ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين، واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ أي: قد لاح على صفحات وجوههم وفلَتات ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1].

٩- التنازع وتفرق الكلمة:

الاختلاف بين المسلمين، وتفرق الكلمة، وتمزق الشمل، من أسباب الهزيمة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وفي تاريخ الأندلس مثّل عهد ملوك الطوائف عهد التفكك والفرقة والتنافس والتناحر والضياع، ابتدأ هذا العهد عام ٤٠٠هـ/١٠٠٩م حيث قامت سبع وعشرون طائفة (إمارة- دويلة) تتنافس فيما بينها، ويتربص بعضهم ببعض، لعل أمير أحدها يملك ما بيد أخيه، وقد سببت هذه الدويلات حالة من الارتباك وضياع الجهود، بينما كانت إسبانيا النصرانية تتربص بهم جميعاً، حتى بمن بينها وبينه تحالف أو صداقة، فسقطت طليطلة سنة ٤٧٨هـ ، وتتابعت الدويلات في السقوط أمام وحدة إسبانيا النصرانية، حتى غابت شمس الإسلام عن الأندلس عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م، بعد أن بقي الإسلام فيها سبعمائة وثمان وسبعين سنة. لقد أسدل الستار على الحكم الإسلامي في الأندلس لتبدأ محنة شعب مسلم يواجه محاكم التفتيش التي أجبرت بروح صليبية حاقدة المسلمين في إسبانيا على اعتناق النصرانية، ومن حاول الهجرة إلى العُدوة الإفريقية لاحقته محاكم التفتيش، وأبادت ما يمكن إبادته[2]، إنها العِبرة! فهل من معتبر!

١٠- الجمود على القديم ونبذ التقدم العلمي والعسكري:

كان العرب يعتمدون في قتالهم على الكرّ والفر، ففاجأ النبي ﷺ المشركين بالقتال بالصف يوم بدر، وبحفر الخندق يوم الأحزاب، واستخدم الدبابات في حصار الطائف، كما اقتبس خالد ابن الوليد أسلوب الكراديس من الروم قبل معركة اليرموك، وفي نهاوند فاجأ المسلمون الفرس بأسلوب تراجع القلب عن قصدٍ ليلتف عليهم الميمنة والميسرة، وفي الزلاقة فاجأ يوسف بن تاشفين النصارى بنظام الكمائن التي دخلت المعركة في الوقت المناسب، وهكذا تكون القيادة العبقرية تبهر العدو وتفوّت عليه

(١) تفسير ابن كثير ٥٢٨/١.

(٢) انظر: عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي . شوقي أبو خليل ١٠٠-١١٢.



حساباته، وتربكه وتضمن عنصر المفاجأة [1]بما يتناسب مع حال المعركة وزمانها ومكانها، باستخدام أحدث الأساليب القتالية والأسلحة المتطورة، أما من أراد الجمود على الأسلحة القديمة التي عفى عليها الزمان، أو الأساليب القتالية التي لا تواكب العصر فنتيجته الهزيمة والخسران.

١١- الإخلاد إلى الدنيا وترفها وترك الجهاد:

الجهاد الإسلامي ثوب العز والنصر لمن ارتداه، والذل والهزيمة لمن خلعه وأباه، وإن استعادة الأرض المغتصبة في كثير من بلاد المسلمين لا يكون إلا بالجهاد الإسلامي؛ لهذا نجد « العقيدة العسكرية الإسلامية تأمر بالجهاد وتنهى عن تركه، وتُعَلِّمُ أسسه ومبادئه، وتخرّج المجاهدين الصادقين. والعَود الأحمد إلى هذه العقيدة، هو طريق النصر والعزة والمجد، وإلاّ فكيف ننتصر بدونها! » [2] وأقرب الأمثلة لذلك المسلمون في الأندلس، لما أصبحوا على حال الترف والإخلاد إلى الأرض، والأمن والنعيم الدائم، تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال ، وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد وأي بلاد ! وأَسَرَ وقتل وسبى واسترقّ، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته! [3]. وليس حالنا الحاضر بأفضل من حالهم.

١٢- الوهن والضعف:

الوهن والضعف النفسي والحسي سببان من أسباب الهزيمة، فإذا أحبط المقاتل وقتلت معنوياته، دبّ الرعب في قلبه وترك المعركة فارّاً منهزماً؛ و« دول العالم اليوم تعطي ٧٥% للمعنويات و٢٥% للأمور المادية في جيوشها »[4]. وقد تخلخل الصفّ المسلم في أُحد عندما نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل. ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمداً. فحصل للمسلمين ضعف ووهن وتأخر عن القتال فقتل من قتل منهم، وانهزم من انهزم منهم ، فجاءت الآيات منكرةً على من حصل له ضعف منهم: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] [5].

هذه أهم أسباب الهزيمة أعاذنا الله أن يصيبنا شيء منها، وأن يعصم أمتنا منها ويهيأها لطريق العزة والتمكين.

---

(١) انظر: عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي . شوقي أبو خليل ٢٣-٢٤.

(٢) العسكرية العربية الإسلامية، محمود شيت خطاب ٤٠.

(٣) انظر: تفسير القرطبي ٣٩/٣.

(٤) انظر: عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي . شوقي أبو خليل ١٧.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير ٥٤٣/١.



الخاتمة

بعد هذا التطواف تبين أن النصر من عند الله وما في ذلك شك، وهذا النصر يهبه الله لمن وفّر أسبابه وحقق شروطه، أما من تكاسل عن الأخذ بالأسباب، وأعرض عن تحقيقها، فلا ينتظر إلا الهزيمة. فحري بالمسلم العاقل أن يجتهد في تحقيق هذه الأسباب حتى يتمكن للأمة العزة والنصر وتعود لها قيادة الدنيا، وأن يجتهد ما أمكنه أن لا يقع في شؤم أسباب الهزيمة، لئلا يجر على نفسه وأمته الهزيمة والخسران- أجارنا الله من ذلك.

وهنا ينبغي التنبُّه إلى أمر وهو: أن النصر قد يتأخر ولو كان أهله مسلمين وأعداؤهم كافرين وذلك لأسباب، منها :

قد تكون البنية للأمة لم تنضج بعد، فلو نالت النصر حينئذٍ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً. أو لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة، فلو انتصر حينئذٍ للقيت معارضة من البيئة حولها لا يستقر معها قرار، فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستبقائه.

وقد يتأخر النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على المنهج الصحيح بعد النصر عندما يتأذن به الله.

وقد يتأخر النصر؛ لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته، فهي تقاتل لمغنم تحققه، أو تقاتل حمية لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها.

وقد يتأخر النصر؛ لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً، فلو غلبه المؤمنون حينئذٍ فقد يجد الباطل له أنصاراً من المخدوعين فيه لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تتكشف لهم الحقيقة، فيشاء الله أن يبقى الباطل مدة من الزمن حتى يتكشف عارياً للناس، وإذا ما ذهب فإنه يذهب غير مأسوف عليه.

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ولا نعلمه نحن قد يتأخر نصر الله ، فتتضاعف التضحيات، وتتضاعف الآلام، وتتضاعف معها الأجور، وفي كل ذلك خير، مع دفاع الله عن الذين آمنوا، وتحقيق النصر لهم في النهاية: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠] (١).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/٢٤٢٦-٢٤٢٧.

